

دراسات أدبية

يعد الدكتور عبد الله ركيبي من رواد النقد الأدبي في الجزائر الذين لهم رؤية واضحة حول استقبال الآخر متضمنا موقفه ما يستوجب الرفض والقبول، ووقف بين فريقين : فريق انبهاري وفريق رافض. فالذين اتخذوا موقفا انبهاريا من الغرب لم يكونوا قادرين على غربة ما طرحه الغرب ، وإنما غلب على موقفهم هذا القبول، وانعكس ذلك على مدوناتهم الشعرية والنثرية، وفي الجانب الآخر هناك من اتخذوا مواقف سلبية من الثقافة الغربية، وهؤلاء لم يكن لديهم رفض مطلق وإنما غلب على موقفهم السلبية، والعدمية .

د. رابح طبجون

والدكتور عبد الله ركيبي أنموذج جزائري جدير بالبحث باعتباره من النقاد الجزائريين والعرب الذين استقبلوا الثقافة الغربية لكنه أصرّ على تأصيل هذه الثقافة وتبنيها.

استقبال الآخر في النقد

الجزائري الحديث

لقد وقف موقفا واعيا مما يتلقى من الآخر، وناقش السياق الثقافي الراهن حين استدعى نسقا فكريا يتخطى رموز الثقافة العربية، إلى قراءة الثقافة الغربية ولكن بذات ناقدة ومتسائلة، وروح قلقة وباحثة عن الحقيقة. ورغم طموحه القومي ، ودفاعه عن الهوية العربية التي قاومت الاستعمار الفرنسي ورسخت الحرف العربي في الجزائر بعد الاستقلال بجهد كبير إلا أنه كان حريصا على التعددية وحرية الاختلاف ، وموقنا أن كل ثقافة ستكون منحازة إلى ظروفها ، والانشغال بالشكل الأدبي مع الاهتمام بالدلالات الاجتماعية والفكرية التي يحملها النص الأدبي هو السبيل إلى بلورة المفاهيم الأساسية التي بين معالمها وحدد بعض سماتها وذلك ما سنحاول البحث في مداراته .

بين آليات الممارسة وإشكاليات

التنظير "عبد الله ركيبي نموذجا"

1. التفاعل بين المناهج النقدية (التجليات والآفاق) :

لا ينكر أحد أن المناهج النقدية الغربية الحديثة هي نتاج سياق ثقافي اجتماعي وتاريخي خاص، كما لا ينكر أحد أن ما قدمه النقاد العرب القدماء من مفاهيم وتراث نقدي كان نتاج سياق ثقافي اجتماعي وتاريخي أيضا. لكن هذا السياق كان يتشكل من خلال انفتاحه على التراث الإنساني السابق له، الذي كان يتمثله ويعيد صياغته وتشكيله وفق حاجات الفكر العربي، ومن خلال الوعي الثقافي الذي أنتجته هذه الحضارة.

إن وعي الذات والهوية والخصوصية يجب ألا يبقى في إطار وضع الذات في مواجهة الآخر، أو الآخر في مواجهة الذات، وكأن هناك قانونا ثابتا يحكم هذه الثنائية، أو هذا التقابل، بل لابد من وعي الذات من خلال جدلها مع ذاتها، وجدلها مع الآخر

إن ما نحتاجه في هذا المجال، كما هو الأمر في المجالات الأخرى إلى العلمية والانفتاح، وليس بمعنى الاستسلام واتخاذ وضعية المستهلك، والقبول بكل ما تقدمه المناهج النقدية الغربية الحديثة، بل لابد من التفاعل معها بما نملكه من تراث نقدي عربي، وبما ندرکه من سمات وخصائص نابعة من خصوصية التجربة الثقافية والإبداع العربيين، وهو ما عبرت عنه تجربة الشعر العربي الحديث في نسختها الأولى على أيدي نازك الملائكة ، والسياب والبياتي وغيرهم من شعراء الحداثة العرب.

لقد أصبحت التعددية شعارا للتقريب على غرار المجتمع المتعدد الذي ينفي النظام الشمولي ، وتعني التعددية التفتح والقدرة على الحوار وسعة الأفق والمرونة وهذا هو المنطلق الذي دفع الدكتور عبد الله ركيبي إلى التأكيد أن " المناهج النقدية هي في حقيقتها تعبير عن صراع فكري يدور بين رؤى مختلفة ولا يوجد أحد فوق الصراع يلعب دور الحكم المحايد وليس من الواجب رد المناهج المتعددة إلى واحدة" (1). وبين أن ثمة ازدهار متواصل في الوعي النقدي العربي الحديث. هذا ما يبدو ولكنه محفوف بأخطار لا سبيل إلى إنكارها ، حيث ن قابلية الوعي العربي لاستيعاب المنجز وتمثله وعرضه ، واستخدام معطياته ، تفوق بدرجة كبيرة جدا نزعتة إلى اسكانه هويته الخاصة ، والتوفر على درس أبعادها (2).

1 - إشكالية الأصالة والمعاصرة في فكر عبد الله ركيبي :

بلغ موضوع الإفادة من التراث والسبل الكفيلة بتناوله على نحو مفيد وفي نطاق من الصدق والحكم النزاهة المنصف حدا بعيدا من الجدل والأخذ والرد في الدراسات الحديثة ، حيث يقف المثقفون منه مواقف متباينة ، فمنهم من يدعو إلى التمسك به بعيدا عن الوعي العلمي بوظائفه وضمور الوعي النقدي لبنينته ومضامينه ، ومنهم من يدعو إلى نبذه والتخلص منه ميمما وجهه نحو الحداثة . لهذا يجب بداية أن نعرض مفهوم " التراث " عند (عند الله ركيبي) : " إنه ببساطة تلك الجهود الفكرية والثقافية والأدبية التي تتناقلها الأجيال من عصر إلى

آخر " (3). ومن خلال هذا المفهوم يضع التراث بين أطر ثلاثة : هي فكر ، وثقافة ، وأدب ، وهذه العناصر ليست إلا رافدا من الروافد العديدة للحياة العامة لشعب ما ، التي هي أغنى بكثير مما ذكر ، وتستجمع كل العلاقات الإنسانية على مستوى النشاط البشري في حركة تاريخية تمسّ الاجتماع ، والسياسة وال عمران ، والعادات والتقاليد .

فالتراث هو مجموع التراكبات الحضارية التي يجب التبصير بها في إطارها الاجتماعي والتاريخي بينما لا يجب أن يتعدى حدود الشفهي والكتابي ، في حين أنّ التراث أوسع مشهدية وحضورا .

وحضور التراث عند (عبد الله ركيبي) ليس بصورته التقليدية تلك النظرة التي تقوم على الأخذ برؤية الأقدميين ومفاهيمهم للأدب والحياة ، أو كما يقول (محمد عابد الجابري) : " الاستنساخ والانخراط في إشكاليات المقروء والاستسلام لها ... في غياب الروح النقدية وفقدان النظرة التاريخية " (4).

فالتراث - وإن كان يعني القديم - فإنه لا يستمدّ قيمته الجمالية من مجرد القدم ، وإنما من قدرته على تحريك قيم الحاضر وتغذيتها بالطاقة الضرورية المناسبة لدفعها مجدداً إلى ترسيخ قدم الإنسان في التقدم الحضاري ، ذلك أن تكرار التراث - كما تقول الدكتورة (يمنى العبد) : " هو إلغاء له ينفيه ويسقطه من الزمن الحاضر ، وهذا يعني أننا نتعامل مع التراث بفكر هذا التراث ولنغي حضورنا في الزمن الحاضر " (5).

إنّ الحداثة عند (عبد الله ركيبي) ذات بعد متعدد في الدلالة ، فهي تعني التطور الواضح الذي " نلمسه في الأشكال الجديدة التي ظهرت منذ عصر الانبعاث والإحياء " (6) والحداثة أيضا تعني التجديد حيث يقول : " فالحداثة تعني الصياغة والشكل ، والواقع أن التجديد والجديد الذي نعنيه هو أنّ هناك تغييرا حدث في لغة البشر وطريقة التعبير فيه " (7) والحداثة تعني أيضا التحرر من الجمود حيث التحرر من القوالب (8) التي أعاققت حركة التطور والانطلاق.

وقد دعا الناقد عبد الله ركيبي في منهجه النقدي إلى المزاوجة بين التراث النقدي العربي والتراث النقدي العال " لأنه أن الألوان لكي يكون لنا نحن العرب منهج عربي نقدي مستقل نابع من أصالتنا وخصوصية أدبنا العربي ، منهج يستفيد من تراثنا النقدي العربي الأصيل ومن التراث النقدي الإنساني الذي تنوّعت فيه المدارس وتعدّدت المذاهب والاتجاهات فأغنت الدراسات الأدبية والنقدية " (9) لقد وقف (عبد الله ركيبي) عند دلالة اللفظ : (الحداثة) بمعناه الظاهري البسيط ، فهي عنده الجديد الذي لا يتجاوز الملفوظ بأشكاله الأدبية، وهي نظرة قاصدة ولاشك .

فالحداثة عند (عبد الله ركيبي) هي التي تركز على الشكل لأنه أشد استقرار وأكثر مقاومة لدواعي التغيير ، وهو ضدّ (الحداثة) Modernisme التي تهدف إلى الخلاص من الماضي من أجل الوصول إلى الوسائل التعبيرية الجديدة التي أسسها للتمردّ والرفض كما تتجلى عند أدونيس وغيره .

وهو مع الأصالة (Antenticité) التي تعني " التفرد والامتياز والتعمق في الإحساس والبحث عن جوهر الأشياء ، والتحرر من سيطرة الماضي إلى حد ما والاتجاه نحو الواقع " (10) .

وإذا كانت الأصالة عنده بهذا المفهوم ، فهو يقف ضدّ التقليدية التي تجمد على التراث وترضى به وتتأوله بكل ما فيه .

وفي الأخير ، نستشرف موقف الأستاذ (عبد الله ركيبي) من الأصالة والمعاصرة ، فرأيه الاستفادة الإيجابية من التراث وتفعيله في مسار حركة نهضوية جديدة تعني الماضي وتحتوي الحاضر وتستشرف المستقبل ، لأنّ تنوّع المصادر الثقافية من أهم شروط العطاء الجيد ولاشك أنّ للثقافة التراثية دورا أساسيا في صياغة الشخصية وتحديد الهوية .

2- عبد الله ركيبي من الاستقبال إلى التأصيل :

يمثل عبد الله ركيبي نموذجا مميزا في سياق التأمل في العلاقة العربية بالنقد الغربي ففي تجربته تتعكس الكثير من التجارب الأخرى أو تتكرر المحطات والمواقف والرؤى ، في حين أنّ التجربة نفسها تأخذ خطأ لافتا من حيث هي تعكس على نحو عميق مشكلات تلك التجارب أو تحدياتها .

وتسير دلالة التأصيل في نقد الثقافة الوافدة واستبدال معطيات تلك الثقافة بمعطيات نابعة من قيم حضارية ذاتية مما يجعل التأصيل يتحدد بوصفه عملية إنتاج حضاري تنتقد وتقوم ، والتأصيل عملية تلاقح لم تكن لتقوم لولا وجود الآخر ، ولكن مثلما كان اللقاء بالحضارة الوافدة لا يدفع نحو رفضها وليس من الممكن أن يؤدي القبول بالتفاعل معها إلى القبول بكل ما فيها ، ولقد كان عبد الله ركيبي يخوض غمار التحديث في الأدب الجزائري بوعي المشكلات والمتناقضات التي تنشأ من هذا القدر المحتوم .

وبعد مسيرة طويلة في ممارسة العمل الإبداعي والنقدي يتسائل الدكتور (عبد الله ركيبي) عن جدوى المناهج المطبقة وهل قدمت دفعا للأدب وأثرت روافده فيقول : " إننا بدأنا بالمنهج التاريخي ، ثمّ انتقلنا في مرحلة ثانية إلى المنهج الذي يجمع بين التاريخ والنقد ، فهل نستمر على هذا النسق أم نحاول البحث عن منهج يلائم هذا التوسع في الدراسات من ناحية ، وهذه الكثرة من ناحية أخرى حين نجدد في النقد ومنهجه كما جدّدنا في الإبداع وشكله و محتواه ؟ " (11)

لقد أحسّ ربما برتابة المنهج التاريخي وقلة نتائجه إذا استهلكته الدراسات السابقة ، فكان لزاما عليه أن يفكر في منهج بديل ولعل الوقت قد حان كما يقول : " كي نأخذ بالمنهج النقدي الجمالي الاجتماعي فنهتمّ بالنص من حيث أنه تعبير عن تفرّد الأديب ، وعن مزاحه ، ووعيه ، وثقافته ، ورؤيته الخاصة ، لأنّ هذا الفرد يعيش في مجتمع هو جزء منه " (12)

إنّ هذه الدعوة إلى المنهج الجمالي - الاجتماعي جاءت متأخرة في التجربة النقدية للناقد (عبد الله ركيبي) ، فهي ذات توجه نحو جمالية النص التي يعترف

أنه قصر في الأخذ بها. وقد تجلّت دعوته هذه في كتابه " الشعر في زمن الحرية " الذي صدر سنة 1993 في محاولة منه للعودة إلى ثقافتنا العربية الأصلية إذ وقف متسائلا : لماذا لا يكون لنا منهج مستقل نابع من أصالتنا وخصوصية أدبنا العربي " لأنّ المنهج النقدي ينبع أساسا من حل مشكلات الظاهرة الأدبية في واقع اجتماعي معيّن ، تتحرّك فيه هذه الظاهرة كنوع من الحركة الجدلية التطورية المستمرة ، واعتمادا على أساس بديهيّ ، هو أنّ الهدف الأوّل من كل منهج هو معرفة وتحديد الأسس التي تساعد على قراءة النمط المجتمعي الحضاري المعطى في هذا التطوّر الأدبي الجمالي.

ومن هنا ، نؤكد أنّ أيّ منهج نقديّ يظهر في أوروبا أو في أيّ مجتمع آخر ، إنما يظهر لحلّ مشكل نمط مجتمعيّ محدّد ، وأنّ الناقد الأوروبي يستمدّ منهجه وأدوات هذا المنهج من خلال تصوّر خاص للحياة ، شكله هو النمط الحضاري الذي يعيشه مجتمعه ، ومن ثمّ ، يحل مشكلة النص الأدبي في ضوء هذا التطوّر.

فالمذهب الكلاسيكي في عصر النهضة الأوروبية ، كان عصر العقل الذي تغلب على الدّين وأخضعه إليه ، بعد أن كان العصر السّابق عصر دين ، وكان ذلك نتيجة صراع الفكر الأوروبي مع مسيحية الكنيسة ، ودوافع ذلك الصّراع هي الظروف التي أقامتها الكنيسة في الحياة الأوروبية.

وجاء بعده المذهب الرومانسي الذي كان عصر الفلسفة الوضعية المعارضة للميتافيزيقا (الكنيسة) وعصر الطبيعة كمصدر يقيني للمعرفة ، وهكذا جاءت كل النظريات والمناهج النقدية الأوروبية مرتبطة بمدرسة فكرية واتجاهاتها الفلسفية .

ومن هنا ، نؤكد أنّ الإطار المرجعي الذي يتمّ فيه القبض على المنهج النقدي هو الأساس الفلسفي النابع من التصور الشامل ، ونظرية الأدب المستمدة من خصوصية التراث الأدبيّ، إذن ، لا يمكن الحديث عن مسألة التعامل مع المناهج النقدية الأوروبية قبل الحديث عن كيفية إبداع المنهج النقدي العربيّ " منهج يستفيد من تراثنا النقدي العربيّ الأصيل ومن التراث النقدي الإنساني الذي تتوّعت فيه المدارس ، وتعدّدت المذاهب والاتجاهات فأنمت الدراسات الأدبية والنقدية " (13).

لابدّ من الاستفادة من التّراث النقدي بدراسته دراسة عميقة ، والتّعامل معه بفعالية إيجابية تراعي فيه الجانب التاريخي للمشاكل التي طرحت عليه آنذاك ، والانطلاق من أرضيته في البحث والإبداع ، " فحين نتأمّل تراثنا النقدي عند ابن قتيبة مثلا ، ودعوته إلى أن يخدم اللفظ المعنى ، وإلى تقسيم النصّ إلى أربعة أضرب ، أو نتمقّ آراء " الأمدي " في (الموازنة بين الطائيتين) ودعوته إلى الموضوعية ، وتركه الحكم للقارئ أو المتلقّي ، وإذا تأملنا آراء " الجرجاني " في (وساطته) ، نجد منهجا متكاملا ، كما نجد تحديدا واضحا لمن يتصدّى للنقد ... أليس من الأفضل لنا هذه النظريات كلّها في نقدنا العربي ؟ " ومن خلال هذه الأسس

، يقف الناقد العربيّ على أرضية صلبة محدّدة موقفا نقديا عميقا من جميع هذه المناهج والنظريات الأوروبية ، ويتعامل معها من باب التفاعل الذي يأخذ سمة الإخصاب والإغناء ، لا التقليد والتبعية .

وعموما يمكن أن نجمل مدارات النقد عند الدكتور عبد الله ركيبي فيما يلي :

1- أننا نطالبون بالتحكم في منهج او مناهج نقدية واضحة ومتبلورة وقادرة على أن تتصارع فيما بينها على نحو علمي للوصول إلى تراكم معرفي يقود إلى التطور

2- أن تكون هذه المناهج قادرة على فهم حركتنا الدبية ومتابعتها ورصد اتجاهاتنا وتميزها ، والعمل على توجيهها وتطويرها

3- قيام الناقد بدوره بعيدا على التبعية الذهنية والجمود ، والانبهار والمتابعة اللاهثة .

الهوامش

- 1- عبد الله ركيبي : " أدعو لمنهج عربي أصيل " مجلة المجاهد الأسبوعي (الجزائر) عدد : 1383 ، 06 فيفري 1987 ، ص : 61 .
- 2- عبد الله ركيبي : الشعر في زمن الحرية . ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1999 ص : 185 .
- 3- م . ن . ص . ن
- 4- م . ن . ص . ن
- 5- يمني العيد : في معرفة النص ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، 1983 ، ص : 180
- 6- م . ن . ص . ن
- 7- عبد الله ركيبي : " أدعو لمنهج عربي أصيل " مجلة المجاهد الأسبوعي (الجزائر) ، عدد : 1383 ، 06 فيفري 1987 ، ص : 60 .
- 8- محمد عابد الجابري : التراث ومشكل المنهج ، مجلة المستقبل العربي ، مركز دراسات الوحدة العربية (لبنان) عدد : 38 ، جانفي 1986 ، ص : 03 .
- 9- عبد العزيز المقالح : من البيت إلى القصيدة ، دار الآداب ، بيروت ، ط1 ، 1983 ص : 251 .
- 10- عبد الله ركيبي : تطور النشر الجزائري الحديث ، المؤسسة العربية للكتاب ، تونس والمؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، سنة 1973 ، ص : 07 .
- 11- م . ن . ص . ن
- 12- م . ن . ص . ن
- 13- م . ن . ص . ن